

عبقريّة محمد الإنسانية

للأستاذ أنور المعداوي

[مهادة إلى الزبائن الإنسان]

رجل يمكن أن تجتمع فيه تلك الصفات ، لنضع بعد ذلك في مواجهة اسمه كلمة « إنسان » ... وإنما توزن الإنسانية في هذا العظيم بميزان اللحظة النادرة من لحظات حياته ، حين يقف وحده متفرداً في مجال يمز فيه التفرد على كل شبيهه وكل نظير . وما أكثر الملاحظات النادرة في حياة محمد الإنسان !

أنا أريد أن أنظر إلى عبقرية الإنسانية في شخصية الرسول من خلال منظر آخر ؛ منظر يحدد الروايات التي تفتقر في الشهد الإنسان من نظائرها فيما نمارف عليه الناس .. إذا قلنا إن محمداً إنسان لأنه رحيم فأكثر الرءاء ، وإذا قلنا إنه إنسان لأنه وفاء أكثر الأوفياء ، وفل مثل ذلك في سماحة الطبع واللودة والألفة والإيثار والعطف ؛ فأكثر ما كان يملك أصحابه من كل هذه الفضائل والسمات ... ولكن محمداً كان يفتقر عنهم جميعاً في هذا المجال ؛ مجال المفاضلة بين « الإنسان » في صفاته العليا التي تقررها موازين القيم والأوضاع ، وبين « الإنسان » العظيم في صفاته المثلى التي يعجز عن تقررها موازين القيم والأوضاع !

محمد الإنسان النادر لا يوزن إلا بميزان يبحث عن الندرة الخلقية التي نعمة وحده في كفة ، وتضع في الكفة الأخرى ما شاء لها أن تضع من الناس ... ولئن بيناً للباحثين أن ينفذوا إلى أعوار حقيقة الإنسانية ، إلا إذا وقفوا طويلاً أمام تلك المشاهد التي ترضى لهم نماذج من حياة ذلك القلب العظيم ؛ نماذج لا تعدد منها الصور ولا تتكرر الألوان .

سأنظر إذاً إلى محمد الإنسان على ضوء اللحظة النادرة من لحظات حياته ؛ تلك التي قلت عنها إنه يقف فيها متفرداً حين يمز التفرد على كل شبيهه وكل نظير . لحظات « الضعف الإنساني » في حياة الرسول هي وحدها دون غيرها التي تهدي السالكين إلى معالم الطريق ؛ طريق الوصول إلى حقيقة الإنسانية ... وإنه أضعف الأتقيا والقادرين حين يشرفون على الدنيا من أعلى قمة من قم الأخلاق ، ليخضعوا للناس جناح الضعف من الرحمة . هذا « الضعف الإنساني » في حياة محمد ناتج من كونه إنساناً عابثاً قبل أن يكون نبياً عابثاً يحمل مشعل الهداية إلى

إنسان عظيم ...
وذلك أصدق ما يقال فيه رعاية ما يقال .
محمد الرسول في مواقف الرسالة ، ومحمد البطال في مواقف البطولة ، ومحمد الصديق في مواقف الصداقة ، ومحمد الرائد في مواقف الأبهة ،



ومحمد في كل موقف من مواقف العبقرية يحتل من نفسه مكاناً لا يدانيه مكان .. ولكن جانباً من جوانب هذا العظيم الذي يلمر أبدأ فرق مستوى الأقران والنظراء ، بهزنى هزاً عنيفاً كلما تحتلته في طوايا الخاطر أو بشته من ثبابا الشهور ؛ ذلك هو محمد الإنسان !

قد ينظر غيري إلى الجانب الإنساني في حياة الرسول من خلال المنظار الذي ألته الناس ، حين يتخيّلون الإنسانية مجموعة فضائل يجوز أن يشترك فيها العظيم وغير العظيم ... هذا المنظار الذي ينظر من خلاله إلى إنسانية محمد ممثلة في الرحمة واللودة والألفة والإيثار والعطف ، لا يهيء لصاحبه أن يضع يده على مفتاح هذه الشخصية الغدة في حقيقتها البعيدة ، هناك في أحرق الأعماق وأبعد الأعوار .

إنسانية محمد لا توزن في رأيي بذلك الميزان الذي يقام لكل

في كثير ولا قليل ، لأن محمداً كان إنساناً عظيماً بأدق صفات الكرامة قبل أن يبعث رسولا إلى الناس ، والدليل على ذلك من تاريخ حياته مهياً ميسور لكل من يلتصق الدليل ... وذلك أمر لا ريب فيه ولا حدال !

بعد هذا نعود إلى المجال الذي يجب أن يبحث في رحابه من محمد الإنسان ، مجال اللحظة النادرة من لحظات « الضعف الإنساني » في حياته ! هناك حيث نبدو الرحمة في غير موضعها لترفع الظلمة عن حقيقة هذا الإنسان العظيم :

« مات عبد الله بن أبي » ، زعيم المنافقين في عهد الرسول ، ورأس الفتنة التي كانت تشر سمومها في صفوف المسلمين ، عبد الله بن أبي الذي لم يسلم محمد من كيدته وشده ولسانه ، عبد الله بن أبي الذي نزل فيه وفيمن على شاكلته حكم السماء : (استغفر لهم ؛ أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ...

« مات هذا المنافق فصلى عليه محمد بمدة مائة ، ثم نحل لأهله من قيمه ليكفروه فيه » ثم يقول لعمر حين يقب عليه متاباً بلمح حد التنصيف والإنكار : « آخر عني يا عمر ، لو أعلم أني إن رزئت على السجين غفر له زدت » ! ... ثم يقول لن يسأله لم دفعت إليه بقميصك وهو كافر : « إن قيمتي لن يغني عنه من الله شيئاً ، وإنني أؤمل من الله أن يدخلني الإسلام كثيراً بهذا السب » ! ... ولم يلبث محمد إلا قليلاً حتى سمع رأي السماء : (ولا تعمل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) !

هذا هو محمد الإنسان متفرداً في مجاله ، متوحداً في فضائله وأعماله ... لقد كان قادراً على قتل عبد الله بن أبي ، ولكنه لم يفعل ، وكان قادراً على أن يشيعه بالعنت ولكن لم يفعل ، لأنه إنسان ... إنسان يتسع قلبه للعالم بما فيها : من خير وشر ، من فضيلة وورقة ، من إيمان ونفاق ، من وفاء وتنكرو للوفاء . ويتسع للعالم بما فيها : سواء أكان فيها صهر بن الخطاب ، أم عبد الله بن أبي ، أكان فيها على زوج ابنته فاطمة ، أم هبار بن الأسود قاتل ابنته زينب ! ... هذه هي اللحظة التي تتجلى فيها الندرة في الطبيعة الخلقية ؛ « لحظة الضعف الإنساني » الذي ينفخ

جبل من بعده أجيال ... إن الرحمة في موضعها أمراً لا غرابة فيه ؛ ولكن الرحمة في غير موضعها أمر تنكتهه الثروة من كل نواحيه . وهكذا كان محمد : فهو في موقف الرحمة حيث تطلب الرحمة « رجل عظيم » ولكنه في موقف الرحمة حيث لا ينتظرها أحد « إنسان عظيم » . وهذه هي اللحظة النادرة التي لا يشاركه فيها أحد من الناس ، لحظة « الضعف الإنساني » التي تثبت من غلبة الإنسانية على طبيعته وتطغى فيها في كل خليفة من خلفائه ! وهي التي يسميها الباحثون رحمة دون أن يفرقوا بينها وبين الرحمة التي يقدم عليها غير العظيم أو يقدم عليها العظيم وهو غير إنسان . يقول الأستاذ المقاد في مرض الحديث عن إنسانية محمد :

« النبي لا يكون رجلاً عظيماً وكفى . بل لا بد أن يكون إنساناً عظيماً فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التي تتم الرجولة والأثوية والأفروية والضعفاء ، وتهدؤ للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم . فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها ، قادراً على علاجها وإن لم يكن مريضاً لأدوائها ، شاملاً لها بسطته وإن كان ينكرها بفسكره وروحه ؛ لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر بحجة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء ؛ لأنه يملك مثلها آفاقاً كآفاقها ، هي آفاق الروح » .

هذه الكلمات التي يسموها الأستاذ المقاد من محمد الإنسان تنطبق كل الانطباق على « الرجل العظيم » لا على « الإنسان العظيم » ... لأن الرجل الذي يشمل الناس بصفته ، ثم يفسر هذا المطلق على أنه أكبر من أن ياتي الأمور لقاء الأنداد وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ؛ هذا الرجل إذا وضع في الميزان صاحب طبيعة خلقية تنبع فيها الرحمة من منابع المظلمة النفسية تلك التي تنظر إلى كل شيء نظرة القمم إلى السفوح أو نظرة الكبير إلى الصغير ... وفرق بين رحمة يفرضها على صاحبها الصالح والكبرياء ، ورحمة يفرضها التواضع الموصول بالروابط الإنسانية في أوسع آفاقها ، وأرفع مزاياها .

أما قول الأستاذ المقاد بأن محمداً لا بد أن يكون إنساناً عظيماً لأنه نبي عظيم ، فهو في رأي لا يثبت ولا يؤكد إنسانية محمد

الرسول الكريم إلى لون فذ من الصفع والرحمة ! هناك حيث يأتي الصفع والرحمة على غير ترقب وانتظار ... إن الرحمة كما سبق أن قلت حين تأتي في موضعها تكون سمة من سمات « الرجل العظيم » ، ولكنها حين تأتي في غير موضعها كما حدث هنا تكون سمة من سمات « الإنسان العظيم » ، وفي هذا النطاق نجد محمداً ولا نجد سواه !

ويقدمنا ذكر هبار بن الأسود إلى أن نورد هنا شيئاً من قصته ، فيها لحظة أخرى من لحظات التفرد في عبقرية محمد الإنسانية ... كانت زينب بنت الرسول في طريقها من مكة إلى المدينة ، تلبى دعاء الشوق الأبوى للبعث من قلب أبيها العظيم ، وكان يرفقها نفر من أهل ومحبه ليكونوا لها ملاذاً من كيد السكاكين وعدوان المعتدين ، ولكن قطاع الطريق ممن خرجوا على طاعة الرسول وكفة السماء قد اعترضوا طريق القافلة المؤمنة والركب الآمن ، اتندى رمال الصحراء بمد قليل بأطهر دم سال على رمال الصحراء ، لقد كان دم زينب أرافته رمية رمح من يد الجارم الآثم هبار بن الأسود ؛ وحين يبلغ الأمر محمداً الوالد يتلقاه كما يتلقى الآباء مصارع الأبناء ؛ بالحزن العميق والأسى الدفين ، واللوعة التي تهز في القلب الكبير مكان الألم والمذابح ... ويهدر محمد الزعيم دم هبار بأى مكان وجد ، وبأى بلد نزل ، وبأى حى من أحياء العرب أو العجم حل متخفياً أو سافراً بغير قناع . وينطاق أصحاب محمد في إثر ابن الأسود لا يتركون فجاً من فجاج الصحراء ولا بقعة من بقاع الأرض ، ولكنهم يسودون سفر الأبدى من ذلك المندى الآثم ... ويعود الوالد المنجوع إلى حزنه وأسائه !

وفي يوم من الأيام التي لا تنسى في حياة الرسول يتقهم مجلسه رجل يخفى وجهه تحت لثامه ؛ رجل لا يملك عينيه من اللمع ، ولا قلبه من الرجل ، ولا لسانه من طلب الصفع والتفوة وينظر الإنسان العظيم إلى هذا الذي يستجير به وينزع إليه فيجده قاتل ابنته هبار بن الأسود ، يدفع إليه برمه ليصنع به باصنع بزينب جزاء ما اقترفت يدها ... وهنا يخفى محمد الوالد المنجوع في أعز ما يملك من دنياه ، ولا يبقى إلا محمد « الإنسان العظيم »

في أكرم ذروة من ذرى « الضعف الإنساني » ؛ هناك حيث يخفض لمبار جناح الضعف من الرحمة ... وهناك حيث يخرج هبار وقد غفر له ... وهناك حيث يقف محمد متفرداً في مجال النبوة الخلقية حين يميز التفرد على كل شبيه وكل نظير !

ولحظة ثالثة وما أكثرها من لحظات ... لحظة قد يمر بها المجال فلا يقفون أمامها طويلاً ليتأملوها تأمل المترفين في البعث عن جوهر النفوس ومعدن القلوب ، حين يصهرها وهج الرحمة في بوتقة « الضعف الإنساني » ؛ ضعف الأنبياء والقادريين ! طفل يموت ... وما أكثر ما يموت الأطفال وغير الأطفال فيتجده الآباء أمام شبح الموت ووقم المصيبة ؛ لا يترقب في مأنيهم دمع ، ولا يهتف بعلمهم حزن ، ولا يذهب بصبرهم وقدة شعور ملتح ، وقد يكون المنجوعون أناساً لا حظ لهم من مقارعة المطوب ولقاء الشدائد ومطالبة الأحوال ؛ ولكن موت إبراهيم يهز في نفس محمد كوا من الشجن ، ويهز في عيني محمد عصى الدموع ، محمد القى لم تهزه الدنيا بكل ما ادخرته له من محن يرفض منها الصبر وتخور معها العزيمة ، محمد القى توكلت على كفيه عوادي الزمن يسير وراء إبراهيم متوكلتاً على كتفي عبد الرحمن بن عوف ! وممذور ابن عوف حين يستكثر البكاء على الرسول وينسكو البكاء على الرسول ؛ لقد كان ينظر إلى « الرجل العظيم » الذي بكى ، ناسياً أن الذي بكى هو « الإنسان العظيم » ! ... وممذور ابن عوف إذ نظر إلى محمد فوجده يسكى على غير ترقب وانتظار ؛ لقد كان عهده به جهلاً أمام المصائب ، قهاراً للمطوب ، ولكنه نسي لحظات « الضعف الإنساني » التي تكشف من صدق الإنسانية حين تنفض من جيشان العاطفة أمام أصعب الأمور وأيسر الأمور لحظات « الضعف الإنساني » هي وحدها الميزان الذي توزن به إنسانية محمد دون غيرها من الموازين ، وتوزن به إنسانية محمد دون غيره من الناس ... وهي هنا لحظات ثلاث ، وإنها لقليل من كثير ، وما أكثرها على قلبها في حجاب الشعور والوجدان .